٢ — الأعلام :

أحمد فتحي زغلول باشا

[في مارس الماضي مضى على وفاة أحمد فتحي زغلول باشا ٢٠ عاماً]

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

ولد أحمد فتحي زغلول في قرية أبيانة بمديرية الغربية في ربيع الأول سنة ١٢٨٩ هجرية ، وكان أصغر أنجال الشيخ إبراهيم زغلول أحد الأعيان البارزين في تلك القرية ، ولكنه حرم حنان الوالد وعطفه ؛ إذ مات والده وتركه رضيعاً لم تتفتح عيناه للحياة بعد ، وكان شقيقه سعد زغلول فطيما ، وكانت والدتهما — وهي إحدى عقائل عائلة بركات — لا تزال شابة لا تتجاوز العشرين ، فمنحت شبابها لولديها اليتيمين ، ووقفت نفسها على تربيتهما تحت رعاية أخيهما الكبير لأبيهما الشناوي زغلول الذي عني بتعليمهما على ما كان معهوداً في تعليم أولاد الأعيان يومذاك ، وكان أن نفع الله بالطفلين اليتيمين على خير ما يكون النفع للأمة والوطن ، فصار سعد إلى ما صار إليه في زعامة الأمة وقيادتها ، وانتهى فتحي إلى ما انتهى إليه ، دعامة من دعائم الإصلاح التشريعي والاجتماعي ، ومنارة تهدي ركب الأمة إلى سواء السبيل .

ولم يكن اسمه أحمد فتحي ، وإنما كان اسمه فتح الله صبري ، هكذا سماه والده ، وهكذا عرف في حياته الأولى ، حتى انتهى من مراحل التعليم في كتاب القرية ، وفي مدرسة رشيد الابتدائية ، ثم المدرسة التجهيزية ، ودخل مدرسة الألسن وصادف أن زار أحمد خيري باشا ناظر المعارف يومذاك تلك المدرسة ، فأعجب بذكاء الشاب فتح الله صبري ، وأدهشه ما لمس فيه من نبوغ خارق ، فخلع عليه اسمه أحمد ، ونحت من « فتح الله » إسم فتحي ، وهكذا سماه أحمد فتحي ، وأصدر أمره إلى المدرسة بقبوله بالمجان ، وورد ما دفع من المصاريف إليه ، وكانت هذه أول شهادة بالنبوغ لفتحي زغلول ...

وتخرج فتحي متفوقاً في دراسته ، فأرسلته نظارة المعارف سنة ١٨٨٤ إلى فرنسا للدراسة الحقوق ، وقد رجع في سنة ١٨٨٧ بعد أن حصل على شهادة الليسانس في القانون ؛ فعين بقلم قضايا الحكومة ، ثم رقي رئيساً لنيابة أسيوط ، ثم رئيساً لنيابة الإسكندرية ، ثم مفتشاً بلجنة المراقبة ، ثم رئيساً لمحكمة الزقازيق فرئيساً لمحكمة مصر ، ثم اختير وكيلا لنظارة الحقانية ، وقد ظل في هذا المنصب حتى انتقل إلى جوار ربه ...

تلك كانت حياة فتحي زغلول في مناصب الحكومة ، وهي حياة يمكن للمؤرخ أن يجملها في سطور ، وما كانت حياة الوظيفة في يوم مجال عبقرية ولا مظهر نبوغ ، وإنما كان مجال عبقرية فتحي ومجال نبوغه في ناحية الإصلاح التي رادها ، والتي رأى في انتهاجها خدمة للوطن ونفعاً للأمة وإفادة لشباب طامح يتوثب للنهوض ، وينشد الحياة المهذبة الكريمة . فما هو ذلك المجال الذي اختاره فتحي للعمل ، وآثره بجهوده ونبوغه ؟

يقول فتحي باشا في كلمة من كلماته : « إن من يخبر حال هذه الأمة ويقف على كنه خلقها ، ويعرف جيداً حقيقة خصالها ويدرك الصحيح من آمالها ، وينعم النظر في أعمالها ، يقتنع بأن التربة زكية لا يفسد زرعها إلا شيء من البذور الرديئة ، وبأن الخالق الكريم يغشاه ستار من عدم العلم التام بالواقع ، وبأن الآمال كبيرة شريفة لكنها مشوبة بشكوك وأوهام تطوح بنا يوماً ذات اليمين ويوماً ذات الشمال . أما أعمالنا فثمرة هذا وذاك ، تهتاج والسكون واجب ، وتلهو وكل النجح في العمل ، وما كان شيء من كل هذا يكون لولا خطأ في تقدير حقيقة حالنا ، وعدم التفات إلى حركة البيئة التي نحن فيها ، ونسيان لشيء كثير من الماضي ولهو عن الحاضر وعدم اهتمام بما هو آت . ومحال أن تدوم هذه الحال ، فلا بد لنا من إعداد العدة اللازمة لهذا التحول ، وما هي إلا العلم ؛ فإن العلم سلم الأمم إلى الحضارة ، وكاشف ظلمات الجهل ، ومسدد الآراء ، ومنجح كل مجهود ، وهو الذي ينقي الضمائر ، ويجمع شمل المتفرقين ، ويطهر السرائر ، ويوحد كلمة المتنافرين ، وينير البصائر فيهدينا إلى أن التآزر شرط النجاح ، وأن يد الله مع الجماعة ، وأن التباغض مجلبة الشر وأن التنابذ سبيل إلى الذلة » ...

هذا هو ما رآه فتحي في تشخيص داء الأمة ، وتقدير الدواء لها ، وعلى هذا اندفع ينشد العلم الصحيح لشفاء الأمة من دائها . العلم الذي « ينقي الضمائر ، ويطهر السرائر ، وينير البصائر » ، العلم الذي « يقوم الأخلاق ويبصر الأمة بما لها من الحقوق ،

وما عليها من الواجبات » ، وبين غسق القرن الماضى ، وغلس القرن الحاضر كانت تهز حياة الأمة دعوات الإصلاح المتتالية ، فكان الأستاذ الإمام محمد عبده يدعو دعوة الإصلاح فى الناحية الدينية ، وكان مصطفى كامل يحمل لواء الوطنية ، وكان قاسم أمين يدعو إلى النهوض بالمرأة المصرية ، وكانت هذه الدعوات يكتنفها ما يكتنفها من الضجيج والتدافع . أما فتحى زغلول فقد وقف فى ميدانه ينادى : « علموا الأمة . علموا الأمة » ، وانتحى من ذلك ناحية هادئة ، فعكف على التأليف والترجمة ، ونقل الآثار النافعة ، حتى يقيم من ذلك دعامة للأمة تنهض عليها إلى ما تنشده من الحرية والكرامة وقوة الشخصية .

وكان فتحى زغلول رجل ارتقاء لا رجل ثورة كما يقول أحمد لطفى السيد باشا ، وكان يرى أن الوصول فى الاصلاح إلى نتيجة مضمونة يقتضى إدراك الحقوق والواجبات ؛ حقوق الفرد وواجباته ، وحقوق الأمة وواجباتها ، ولهذا ابتدأ سنة ١٨٨٨ على أثر عودته من فرنسا يترجم كتاب «العقد الاجتماعى» لروسو ، ولكنه بعد أن قطع فيه شوطاً بعيداً تجاوزه ، وأقبل على ترجمة كتاب «أصول الشرائع» لبنتام فأتمه وأصدره بعد فترة وجيزة ، ثم مضى فى الترجمة والتعريب ، فعرب كتاب « خواطر وسوانح فى الإسلام » لكونت هانرى دى كاسترى ، و « سر تقدم الإنكليز السكسونيين » لأدمون ديمولان ، و « روح الاجتماع » و « سر تطور الأمم » و « جوامع الكلم » و « حضارة العرب » لجوستاف لوبون ، و « خطاب مصطفى فاضل باشا إلى السلطان عبد العزيز » و « كتاب بورجار فى الاقتصاد السياسى » ، و « جمهورية أفلاطون » و « الفرد ضد الملكة » لسبنسر .

ومن هذه الكتب ما تم تعريبه وطبعه ، ومنها ما تم تعريبه ولم يطبع ، ومنها ما تركه رهن الإنجاز والإتمام ولا ندرى ماصنعت به الأيام .

أما فى مجال التأليف فقد ترك « كتاب المحاماة » و « شرح القانون المدنى » و « رسالة فى التزوير » ؛ كما ألف كتاباً « فى التربية العامة » فأتمه ولكنه لم يطبع فيما علمت . وهناك كتاب وهو كتاب « حاضر المصريين ومر تأخرهم » الذى ظهر سنة ١٩٠٢ من تأليف « محمد عمر » ، وكتب مقدمته فتحى باشا ، فإن بعض العارفين يعزون تأليف هذا الكتاب إلى فتحى زغلول باشا ، ويقولون إنه أخرجه على نسق كتاب « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » الذى ترجمه ، ولكنه لم يضع اسمه عليه إيثاراً للسلامة نظراً لما تضمنه الكتاب من نقد شديد لاذع ...

وكان لفتحى باشا فى التعريب طريقة آثرها وارتضاها . كان يقرأ الكتاب ويأتى عليه جملة ، ويتشرب روح المؤلف ويتقمص شخصيته ، ثم يأخذ بعد ذلك فى التعريب . قال أحمد لطفى السيد باشا : « ولفتحى باشا فى تعريبه شخصية تامة ممتازة فى طريقته وفى أسلوبه البيانى . أما نحوه فى التعريب فليس هو الالتزام الحرفى للأصل ، ولا المجافاة للأصل ، ولكن نحوه بين ذلك وسط مرضى . وأما أسلوبه فهو عربى خالص لا يعنى فيه بفضلة الزخرف والمحسنات اللفظية ، ولكنه مع ذلك متين الرصف ظاهر الرشاقة جذاب جداً » .

أما شخصية فتحى باشا فكانت شخصية العالم ؛ فالهدوء والرزانة ، والإخلاص للعمل ، وأداء الواجب قبل كل شىء ، والابتعاد عن مجال الضجيج والصخب . كل هذه كانت صفاته الظاهرة ، حتى أنه لم يكن يرى فى ميدان الحياة العامة إلا قاصداً لعيادة مريض ، أو مواساة رفيق ، أو متوجهاً لرد زيارة ، أو مشاهداً لحفلة أنس لا بأس أن يجد فيها شيئاً من الرفاهية ، وماعدا ذلك فكل وقته بين الدفاتر والقماطر ، والتحرير والتحبير ، كأنه كان يتعجل إنجاز مهمته قبل أن تعجله المنية . قال صديقه أحمد لطفى السيد باشا فيما رواه عنه :

« ما أنس لا أنس إذ دخلت إلى فتحى باشا فى داره بهليوبوليس فى يوم حر ذى لوافح محرقات . دخلت إليه وقت الهاجرة فوجدته على مكتبه ، وأمامه أوراقه منثورة ، وكتبه مفتوحة ، يقرأ ويراجع ، ويعرب ويكتب ، كذلك دأبه لا ينقطع عند خلوه من عمله الرسمى إلى عمل واحد بعينه ، كأن عادته فى العدل بين الناس جملته يعدل فى تقسيم فراغه بين المقاصد العلمية المختلفة . أو كأنه يجد فى الانتقال من عمل إلى عمل راحة وتنشيطاً . فقلت له : أتلك هى رياضتك فى الأجازة وراحتك فى عمارة القيظ؟ فقال وهو يبتسم : نعم هذه رياضتى . فخلفته فيما يظنه رياضة ، ويتخيله سعادة ، وخرجت أحمد الله على أن منا من ينفق صحته وملكاته ووقته فى سبيل العلم » .

هكذا عاش أحمد فتحى زغلول باشا للعلم ، وفى سبيله أنفق